

الفصل الحادى عشر

الأمويون ١٠٥ - ١٢٥ هـ (٧٢٤ - ٧٤٤ م)

مبايعة هشام - حالة الإمبراطورية - أخلاق هشام - الشؤون
فى الشرق - فى أرمينيا ، فى أفريقيا ، فتنة الحوارج والبربر
موقعة الأشراف - حنظلة - هزيمة البربر - الأندلس - النزعات
الداخلية - سرعة تبدل الحكم - تعيين عبد الرحمن الغافقى - غزو
شمال فرنسا - موقعة طوروس - مبالغة مؤرخى الرهبان - الغزو
فى فرنسا - الاستيلاء على أفنون - انتصار عقبة - مقتله -
الشاحنات والمنازعات - فشل العرب فى فرنسا - سقوط خالد القصرى
ثورة زيد فى العراق - مقتله - الدعاية العباسية - ظهور أبى مسلم
الحراسانى - وفاة هشام

وبموت يزيد الثانى أفضت الخلافة إلى أخيه هشام بعد أن فتت فى عضدها
العصبية القبلية ، وعصفت بها ريج الحروب الخارجية والفتن الداخلية ، فكانت
قبائل التركمان والخزر الوحشية يشتد ساعدها فى الشمال ، بينما كان الحوارج
المتحمسون تلهب قلوبهم سخطاً وموجدة ، ودعاة الفكرة العباسية يكيدون
للأمويين فى الخفاء . وهكذا تضاعفت شتى العوامل على تقويض دعائم الدولة
الأموية فى الشرق ، بينما هلكت زهرة شباب العرب فى الحروب الداخلية
والفتن التى كان مبعثها سياسة الحسد والوشايات ؛ كما أدت الثقة العمياء التى
وضعها هشام فى وزرائه وإسناد مناصب الدولة إلى العناصر الهزيلة الجشعة إلى
الخراب والتشريد . ومع أننا نرى - هنا وهناك - بضعة رجال كان يتألق
نجمهم كما يتألق بريق الكواكب فى حلك الليل البهيم ، لما عرفوا به من
الإخلاص للواجب ، إلا أن طبقة الموظفين على الجملة كادت تنفقر قلوبها من
روح الوطنية وحماسة الإيمان بسبب النفعية والمطامع الشخصية ، وقصارى القول

كانت البلاد في تلك الأزمنة الطاحنة تحتاج إلى شخصية قوية تقبض على دفة الأمور بيد من حديد . غير أن « هشاماً » كانت تعوزه المزايا الضرورية لمعالجة تلك المشاكل التي منيت بها الإمبراطورية العربية ، إذ كان ولا ريب أفضل من سلفه ، كما أصبح جو البلاط في عهده أنقى من ذي قبل حيث حل الوفاة محل اللهو والمجون ، وأنقذت العاصمة من أولئك الطفيليين الذين يعيشون عالة على المجتمعات كما احترمت تقاليد البلاد ، ولكن الصرامة التي كانت من أبرز صفاته اتخذت مظهر الغلبة والكآبة ، كما استحال تقتيره إلى بخل ممقوت ، وانصافت إلى جميع هاته النواقص هنات أخلاقية ذات بال ، إذ كان الرجل متعصباً في آرائه ، ضيق أفق التفكير ، متشككاً بطبيعته ، فلم ياتمن أحداً من أصحابه ، وراح يعتمد على الجواسيس والمؤامرات للترفة بين صفوف الشعب ، وأصبح اللوشايات ضلع كبير في حكمه على الرجال وأعمالهم . وهكذا ذهب حكام قديرون ضخمة الريبة والظنون ، كما أدى استبدال العمال وطفليانهم إلى نتائج وخيمة العاقبة .

ومن بين العمال القلائل الذين حافظوا على مناصبهم في عهده الطويل « خالد ابن عبدالله القصرى » عامله على العراق ، الذي ظل متربعا في منصبه منذ تولية هشام حتى سنة ١٢٠ هـ . وهو من أشرف اليمين البارزين ، وقد استطاع بحصافته ولباقته أن يحافظ على التوازن بين القبيلتين المتنافستين فلم يقع بينهما قط خلال حكمه أى تصادم يذكر ؛ كذلك عامل المسيحيين واليهود بالعدل والإنصاف فرم كنائسهم وفتح أمامهم أبواب الوظائف على مصراعها ، غير أن تساهله وحنكته السياسية أثارنا عليه سخط المتعصبين ، وهى حالة لا يختص بها عصر دون عصر ولا بلد دون آخر . ومع أنه نال مؤازرة الخليفة وتمتع بحمايته ردتاً من الزمن ، إلا أن سقوطه برغم ذلك كان سريعاً كنجاحه الذي ظل يتألق بريقه طوال خمس عشرة سنة مما لم يسبق له مثيل قط .

وما انقضت مدة وجيزة على مبايعة هشام حتى نشبت منازعات شديدة بين الفتن في الصند

المضريين والحيريين في خراسان فلم يستطع قمعها بسهولة ، كما أعقبت تلك الحوادث فتنة أخرى قام بها أهل « الصفد » ، ويعزى سببها في الواقع إلى جشع نائب أمير سمرقند الذي كان قد وعد بإعفاء من أسلم من الجزية ، ولكنه عاد وفرضها عليهم من جديد ، فثاروا الكرامتهم وعاونهم المستوطنون العرب برئاسة قائد عربي يسمى « الحارث » ، وكان يحقد على الوالى لنكته العهد ، ومما يؤسف له أن أهل تلك البلاد استنجدوا بقبائل التركان التي كانت وقتئذ تتجول فيما وراء النهر ، فأزروهم على حكامهم المسلمين .

أسعد القصرى
والى خراسان

وهكذا نشب القتال بين الفريقين ، وظلت المعارك سجالاً رديحاً من الزمن حتى اضطر « خالد » عامل المراق أن يعهد إلى أخيه أسعد مهمة إعادة الأمن ، وما هي إلا برهة حتى زحف الثوار على جيش المسلمين ، ودارت بين الفريقين معركة رائعة أسفرت عن هزيمة الثوار وطردهم من فرغانة ، وقد ظل أسعد يعمل السيف في رقابهم حتى أجبرهم على الارتقاء في أحضان التركان ، تلك القبائل الرحل التي أصبحت فيما بعد مصدر رعب عظيم للسكان الآمنين . ولم يكد ينتهى عام ١١٩ هـ حتى اجتاحت « أسعد » هضابهم الوعرة وغشى « خوتال » شرق « فرغانة » . وفيما عدا مناوشات طفيفة فإنه لم يستطع التغلب على الثائرين في موقعة حاسمة نظراً لقرب الموسم ، ولذلك عاد إلى « بلخ » لقضاء موسم الشتاء فيها ، كما سمح لجنوده بالعودة إلى بلادهم .

وقد رأى التركان في انسحاب جيوش المسلمين فرصة سانحة لاستئناف أعمال الهدم والتخريب ، فاجتاحوا ثانية ما وراء النهر وأطلقوا أيديهم سلباً ونهباً ، فسارع « أسعد » إلى جمع رجاله بإضاءة المشاعل على رؤوس التلال والهضاب ؛ وما أن التأم جمعهم حتى انقض بهم على الثائرين انقضاض الصواعق وأنخن فيهم القتل حتى أفنأهم عن آخرهم ما عدا الخاقان^(١) الذى لاذ بالفرار

(١) هولقب رئيس قبائل التركان ، وقد أطلق العرب هذا الأسم على جنكيز وخلفائه من بعده .

ولكنه مع ذلك لم يلبث أن فتك به أحد أصحابه . وعند ما انتهى خبر هذا النصر إلى مسامع « هشام » لم يصدق في بادئ الأمر ، إلى أن جاءته الرسل تؤكد له صحة الخبر ، فاستبشر خيراً وحمد الله على خلاص المسلمين من الخلقان ومن جيشه ، وألبست « دمشق » حلل الفرح والنصر . غير أن « أسعد » لم يتمتع طويلاً بشجرة هذا الفوز ، إذ توفي سنة ١٢٠ عقب غزى أخيه عن إمارة العراق . فولى بعده « نصر بن سيار » واستطاع بالرغم من المؤامرات التي حيكت حوله أن يحافظ على منصبه حتى وافته منيته عام ١٣٠ هـ . وكان معتدلاً الآراء ميالاً إلى ترقية شعبه ، كذلك لم تكن إدارته قبيل الفتنة التي نشبت بين المضربين والحيثيين صارمة قط ، بل كانت موسومة بسمعة العدل والإنصاف . ومما يؤثر عنه أنه كان قد عرض على أهل « الصغد » الثاثرين الذين اعتصموا بمناطق التركمان أن يعودوا إلى ولائهم للخليفة ، فاشتراطوا لذلك ألا يضطهد أحداً منهم لمقيدته الدينية ، وألا يعاقبه من غير محاكمة ؛ وألا يعتبر الارتداد عن الإسلام جريمة يعاقب عليها ؛ فقبل « نصر » هذين الشرطين ؛ وعندئذ عادوا إلى بلادهم وتمتعوا فيها بنعمة الحرية والعدل .

تولية نصر بن
سيلو على
خراسان

شكلى إيران
وأرمينيا

وفما كانت كل هذه الحوادث تجري في آسيا الصغرى ، اجتاحت عشائر القوقاس شمالى فارس وأرمينيا ؛ وفي عام ١٠٨ هـ غزت قوة أخرى من التركمان بلاد فارس وأزر بيجان ، فسير عليهم الخليفة جيشاً هزمهم شر هزيمة وأجلاهم عن البلاد ، بيد أن سهولة دخول الغنيرين إلى فارس أغرى القبائل التركمانية الأخرى بغزو الأراضي الإسلامية ، فلم تسكد تمضى أربع سنوات حتى زحفت قوة كبيرة من الخزر على أرمينيا ، ودارت بينها وبين المسلمين عدة معارك رائعة منى فيها المسلمون بعدة هزائم كان آخرها موقعة أربيل^(١) حيث قتل « الجراح » ، ومن

(١) مدينة كردية من مدن العراق على مقربة من نهر الفرات ، فيها ولد قاضى القضاة شمس الدين بن خلكان سنة ٦٠٨ هـ ، وبقرها انتصر الإسكندر الأكبر على دارا الثالث سنة ٣٣١ ق . م . (العرب)

ثم أخذت هاته القبائل تتقدم بسرعة مذهشة دون مقاومة ، حتى غشيت حدود الموصل ، وهناك صمد لهم « سعيد الحرشي » في قوة كبيرة من بعض المتطوعين الذين كان هشام قد أنقذهم من دمشق ، فدارت بين الفريقين معركة رائعة انهزم على أثرها المغيرون شر هزيمة ، وفروا إلى جبال آراس تاركين وراءهم الأسرى وجميع الغنائم التي كانوا قد استولوا عليها في أثناء توغلهم في تلك البلاد .

إعادة تولية
مسلمة

وقد كان هشام متقلبا لا يستقر على حال ، وبذلك العقلية المتقلبة عزل « سعيدا » من الحكم وعين « مسلمة » مكانه ، غير أنه لم يلبث طويلا أن عزله بعد سنة ، وعين في محله « مروان » الذي أفضت إليه الخلافة فيما بعد . وقد استفتح « مروان » حكمه باحتلال بلاد الخزر وكورجيا والسغ والأمصار الجبلية الأخرى ، بيد أن الحروب المتواصلة التي اشتبك فيها مع القبائل الشمالية استنفدت جميع أموال الخزينة . كذلك عصفت في تلك الأثناء ريح الفتن بجنوبي بلاد

جنوبي بلاد
العرب

أفريقيا
والأندلس

المرب ، كما نار الخوارج في العراق في عدة فرص اضطر فيها الحكام إلى استخدام قوات كبيرة لقمع حركتهم . أما أفريقيا والأندلس فقد سارت الأمور فيها سيرا هادئا مدى حين ، وألحقت بعض الولايات بالإمبراطورية العربية . كما أسلمت بلاد السود في سنة ١١٥ هـ ، وتم إخضاع سردينيا وصقلية عام ١٢٢ هـ . أما سرا كوسيا فقد خضعت نهائيا عقب معركة رائعة بين أهلها وبين العرب الذين كانوا في ذلك الحين قد استولوا على بعض المواقع المنيع في فرنسا . ويمكن القول بأن الحظ كان وقتئذ قد بدأ يبتسم لهشام في الغرب ، ولكن لم تكد تنقضى سنة واحدة حتى عصفت بأفريقيا الشمالية ريح فتنة هائلة قام بها البربر والخوارج معا ، كما ظهرت في ذلك الحين فرقة جديدة من المتحمسين في (القيروان) وأطلقوا على أنفسهم اسم « الصفريّة » وأصبح لا يداينهم في قسوتهم وتعصبهم غير « الأزارقة » في المشرق ، وراحوا يصبون جام سخطهم على مضطهديهم وينكلون بهم كلما وجدوا إلى ذلك سبيلا ؛ كما اعتبروا الذين يقولون بخلافة

بنى أمية كفرة مارقين . كذلك روعتهم اضطهادات ابن الحاكم الذى ناب عن أبيه فى « تنغيرة » ومحاولته فرض الجزية على المسلمين ، فتضافرت تلك الفتنة مع البربر وألقوا كتلة واحدة ثم اشتبكوا مع جيش الخليفة فى معركة رائنة قتل فيها الحاكم نفسه ، واستولى الثوار على المدينة ، وما هى إلا برهة حتى زحفوا من تنغيرة إلى القيروان ، فأوقف الخليفة فى الحال الجيش العربى فى صقلية وأمره بالعودة إلى أفريقيا لقمع تلك الحركة الخطيرة .

وفىما كان الثوار يزحفون على العاصمة فاجأهم ابن والى صقلية المدعو « ابن حبيب » فى قوة صغيرة لا تكاد تصلح لمنازلتهم . ولكنه مع ذلك هجم عليهم بجيشه الصغير وعدته الوحيدة الشجاعة والاستبسال ، وهما أبرز ما يمتاز به العربى غير أن البطولة والشجاعة لا يجديان فتيلاً فى مثل تلك المواقف الحرجة ، فكسر القواد أعناد سيوفهم وتقدموا صفوف الجيش ودارت بين الفريقين معركة دامية ، ولكن البربر أحاطوا بهم إحاطة السوار بالمعصم وكادوا يفنوم عن آخرهم . وتعرف هذه المعركة المشؤومة فى التاريخ الإسلامى « بغزوة الأشراف » نظراً لكثرة من قتل فيها من سادات العرب وأشرافهم . وقد أدى هلاك جيش « ابن حبيب » إلى تمرد القبائل فى سائر أنحاء أفريقيا الشمالية مما أثر تأثيراً سيئاً حتى على الأندلس نفسها ، فثار أهلها على عاملهم وانتخبوا مكانه قائداً كان الخليفة قد عزله من قبل . ولما علم هشام بانتصار البربر وفتحهم بالمسلمين اشتد سخطه وأقسم لينكسب بالثوار شر تنكيل ، فعزل فى الحال العامل الذى كان ابنه أصل هذا البلاء لسوء إدارته ، وعين بدلاً منه قائداً حازماً اسمه « كلثوم » ليثار للهزيمة التى لحقت بالمسلمين ، ولكن حدث فى تلك الليلة المشؤومة أن تنازع قائدان عربيان نزاعاً مؤلماً أدى إلى تفرقة كلمتهم فقتل البربر بهم وأعملوا السيف فى رقاب جنودهم ، غير أن الخليفة بالرغم من هذا الفصل المريع أرسل للمرة الثانية جيشاً جديداً إلى القيروان التى كان يحاصرها وقتئذ البربر والخوارج

بقيادة زعيمها « عكاشة » . وتقول لنا الرواية العربية : إن هؤلاء البربر كانوا يهجمون على المسلمين المرة تلو الأخرى باستبسال منقطع النظير ، ولكنهم كانوا في كل مرة يبيءون بالفشل ، وكاد يفلح « كلثوم » في طردهم إلى الصحراء . بيد أن قائداً آخر اسمه « حنظلة بن صفوان » من قبيلة كلب كان قد وصل في تلك الأثناء على رأس الجيش الجديد ، وكان أول ما اعتنى به هو تقوية الحصون وبث روح الشجاعة في أفراد الجيش ، ولكن ما همى إلا برهة حتى وضعت قدرته العسكرية هو ورجاله على المحك إذ داهمهم ٣٠٠٠٠ مقاتل من البربر وأحاطوهم من كل الجهات ، ففرع المسلمون وارتاعوا لهول الحفة ، غير أن « حنظلة » كان من نوع أبطال العهد القديم الذين يجمعون إلى خماس الإيمان — المعروف عن عصر عمر بن الخطاب — رقة القلب النادرة المثل في زمن اشتهر بالقسوة والاستبداد ، فوقف ذلك القائد الباسل في وسط الساحة أمام المسجد الجامع وخطب في الجيش وأهل المدينة خطبة حماسية قال فيها :

« إن المعركة التي ستدور رحاها بين المسلمين المحصورين وبين الثوار المحاصرين إنما هي نضال بين الموت والحياة ، وإن انتصار البربر معناه الفتك بجميع أهل المدينة من غير استثناء » .

وفيما كانت جيوش البربر تصيح وتزجر خارج المدينة ، كان العرب يتربعون نشوب المعركة بقلوب والهة . ومما هو جدير بالذكر أن الذكور الذين يستطيعون حمل السلاح كانوا قد لبوا نداء قائدهم العظيم ، كما برهنت النساء العربيات أنهن لازلن عنصراً نافعا لأزواجهن وآبائهن في ميدان القتال ، ولا سيما أنهن اعتدن حمل السلاح واستعماله في وقت الخطر ، فألف « حنظلة » منهن قوة احتياطية تدافع عن المدينة وقت وقوع المعركة الفاصلة مع الأعداء . ومما يذكّر بهذا الصدد أنه أخذ طيلة الليل يوزع الأساحة على الجنود ويرشدهم إلى خطة القتال ، وما أن انبجج الصبح واتتهت الصلاة حتى أعدوا عدتهم وانقضوا على أعدائهم

انقراض الصواعق ؛ وظلت المعركة تدور رحاها حتى أذنت الشمس بالانغيب فانهزم البربر شر هزيمة ، وظل الجيش العربي يعمل السيف في رقابهم حتى فقد الثوار كل أمل في تجمع صفوفهم أو استعادة قوتهم . وقيل إن عدد من قتل في تلك المعركة الرائعة من البربر وزعمائهم حوالى ١٨٠,٠٠٠ ، وليس أدل على هول الموقف ومبلغ الفوز الذى أحرزه « حنظلة » من قيام المسلمين بصلاة الشكر فى جوامع « القيروان » . وهكذا استطاع القائد العظيم أن ينشر السلم والطمأنينة فى البلاد ويجعل أفريقيا تزدهر وتمتع فى ظله بنعمة الطمأنينة والعدل .

كانت بلاد أندلوسيا التى تشتمل على شبه جزيرة أيبريان — ما عدا كسكونيا — ولانكيدوك وقسم من سافوى تؤلف جزءاً لا يتجزأ من الدولة الأموية . وكانت أغلبية أهل تلك البلاد تقلد المحتلين فى أخلاقهم وعاداتهم شأنهم فى ذلك شأن أهالى المستعمرات دائماً مع أسيادهم المستعمرين ، وبخاصة فى عهد الدولة العربية ؛ غير أن بعد الأندلس عن قلب الإمبراطورية أضعف من نفوذ السلطة المركزية ، كذلك كان النظام الذى تأسست حكومة تلك البلاد على دعائمه مصدراً لكثير من المتاعب ، إذ لم تكن اسبانيا تعتبر غير ولاية ثانوية تابعة لأمير أفريقيا ، وكان والى القيروان هو الذى يولى عمال الأندلس دون موافقة الخليفة على هذا التعيين . ولهذا كانت تذهب المصالح العامة بطبيعة الحال ضحية على مذبح المصيبة القبلية والمنافع الشخصية ، فضلاً عن أن سرعة عزل الحكام وتبديلهم كانا من أسباب نشوب الفتن والاضطرابات .

ولما قتل السمح عند أسوار تولوز اختار الجيش لقيادته عبد الرحمن الغافقى الذى لم يكده يتقلد هذا المنصب بضعة أشهر ، حتى غشى البلاد عامل جديد اسمه « عنبة »^(١) كان قد عينه أمير أفريقيا والياً على الأندلس .

وقد كان عبد الرحمن على جانب عظيم من الشجاعة الحربية والكفاءة

(١) عنبة بن سحيم الكلبي . (المغرب)

الإدارية ، أميناً عادلاً نزيهاً في رأيه ، فاستطاع أن يسيطر بلباقته على العناصر المتنازعة داخل البلاد ، حتى وصل خلفه الذى تقلد منصب الحكم فى صفر سنة ١٠٣ هجرية . وبعد مبايعة هشام بقليل زحف « عنبسة » على فرنسا فاستولى على كركسون ونيم ، وعدة مدن أخرى ذات أهمية ، كما عقد محالفة دفاعية هجومية مع الدويلات القوطية المجاورة . ويقول المسيو رينو : « إن معظم انتصارات عنبسة ، راجعة إلى المهارة وحسن الإدارة أكثر منها إلى القوة والكثرة . وقد أسفر نجاحه فى اكتساب ثقة الأهلى ونيل رضاهم عن تقوية شوكة العرب فى جنوبى فرنسا » ، كما أنه أرسل الأسرى الذين قبض عليهم الجيش العربى فى المدن الفرنسية إلى برشلونه ، حيث عوملوا بالرحمة والعطف . وقد ساعد هؤلاء على توثيق عرى الألفة بين أهالى الأندلس وبين العرب المحتلين ؛ ولنكد الطالع قتل « العنبسة » فى الفتنة التى أثارها الفسقونيون فى إحدى شعاب جبل البرنيه ، فأدى موته إلى نشوب القلاقل ثانية فى الجزيرة وإلى توقيف التوغل فى فرنسا ، فأسرع نائبه المدعو « بالأذرح » إلى الأندلس على رأس جيشه . وفى غضون الخمس سنوات التى أعقبت موت « العنبسة » حتى إعادة تولية عبد الرحمن الفافقى فى سنة ١١٣ هـ ولى خمسة حكام^(١) على تلك البلاد ، لم يملك بعضهم فى دست الحكم سوى أشهر قلائل ، فتعطلت الحركة الإدارية من جراء هذه التغييرات السريعة . كما أن التأثيرين وعلى رأسهم « بيلايو » استعادوا نشاطهم وقوتهم ، ولما ولى « الهيثم » على الأندلس فى سنة ١١١ هـ سعى فى تدمير حصونهم واستأنف الفتح فيما وراء البرنيه ، فسار بجيشه حتى استولى على ليون ، وماسون ، وشالون ، واستولى كذلك على مدينتى بون ، وأوتون ، وصالحته مدن أخرى على دفع الجزيرة . ولكن هذه الفتوحات

(١) م على التوالى : « عذرة بن عبد الله الفهرى ، ويحيى بن مسلمة الكلبي ، وعثمان ابن أبى نعمة الخثمي ، وحذيفة بن الأحوص القيسى ، والهيثم بن عبيد الكلابي » .
(المغرب)

لم تثمر ثمرتها المرجوة . إذ لم يستطع العرب الاحتفاظ بهذه المدن بسبب خصوماتهم القبلية ؛ كما أدت وحشية البربر الذين كانوا يؤلفون القسم الأعظم من الجيش العربي إلى سحق أهل سبتانية ونفورهم من المحتلين ، فانقلبوا أعداء ألداء بعد أن كانوا من أصدق المخلصين .

تولية عبد الرحمن
الفاقي على
الأندلس

استدعى هشام عبد الرحمن الفاقي على أثروفاة « المهيم » وولاه على الأندلس فقابل الأسبانيون خبر توليته بفرح عظيم واعتبروا ذلك فاتحة عهد سعيد خير البلاد . وكان عبد الرحمن — دون منازع — أقدر الرجال الذين تولوا الحكم على أسبانيا وأشد هم وطنية ، فكان يجمع إلى الكفاية الممتازة في الإدارة نبوغاً عظيماً في الأمور العسكرية ، أما جنوده فكانوا معجبين به إلى حد العبادة ، كما أن رقة قلبه وكرمه وعدالته أكسبته محبة الشعب . ومن المآثر عنه أنه زار في أوائل حكمه المدن والساكن ليحل بنفسه الخلافات والمنازعات ، وينظر في الشكايات التي تدفقت عليه من كل حذب وصوب ، فعزل القضاة الذين ثبت لديه خيانتهم أو الإخلال بوظائفهم ، وعين في مكانهم قضاة مشهورين بحسن السمعة وطيب الأحدوث ؛ وفي حكمه كذلك عوملت مختلف الطوائف والممال معاملة واحدة دون تمييز بين الجنس والعقيدة ، كما أعيدت الكنائس إلى أصحابها التي اغتصبت منهم ، ونظمت الإدارة وشؤون المال ، وعوقب من يخل بالأمن بأشد أنواع العقاب ، ولكن كل هذه الأعباء لم تصرفه عن صيانة الحدود الشمالية ، إذ كانت تعتلج في صدره أمنية ملكت عليه له وهي الأخذ بانثار للزعيم التي منى بها العرب على مقربة من تولوز ، كما أنه كان يتوق إلى إحراز انتصارات لا تقل أهمية عن انتصارات طارق بن « زياد » « وموسى بن نصير » فجعلته هذه الرغبات الحادة والآمال البراقية يبذل جهداً متواصلاً لجمع جيش كثيف يسير به إلى الشمال ، وقد كان الحماس الديني لا يزال وقتئذ يعمر قلوب المسلمين ، كما كان الشوق إلى خدمة قائد شجاع مثله يدفع بالآلوف المؤلفة من المتطوعين إلى الانتظام في سلك الجيش .

ثورة مانوزه

كان يحكم قردجان التي تقع في الجانب الآخر من جبال البرنيس حاكم مسلم اسمه « عثمان بن أبي نعمة » أو كما يسميه الكتاب المسيحيون (مونوزه) وكان قد تزوج من لامبيكي الجميلة ابنة « أودي » ديوك « أوف اكويتين » وتحالف مع أبيها ، وبايعاز من حميه شق عصا الطاعة على عامل الأندلس . غير أن عبد الرحمن لم يكن ممن تلين لهم قناة إزاء التمرد والعصيان ، فبعث في الحال جيشاً إلى « الباب » ، حيث كان « مانوزه » يقيم مع زوجه الجميلة ؛ وبعد نشوب معركة بين الفريقين دارت فيها الدائرة على رجال الزعيم الثائر ، فزقوا شرمزق . وفر مانوزه إلى الجبال ، فلحقت به قوة من الجيش العربي وحزت رأسه وحملت زوجه الجميلة إلى عبد الرحمن الذي أرسلها إلى دمشق ، حيث تزوجت من أحد أولاد « هشام » . ونجم عن انهزام « مانوزه » وقته سحق الدويلات المسيحية ، التي كانت قد عقدت معه تحالفات دفاعية ، فوجد عبد الرحمن نفسه مضطراً إلى محاربتهم قبل أن يتم استعدادده لغزو الشمال .

غزو شمال فرنسا

سار « عبد الرحمن » إلى الشمال مخترقاً أراغون ، ونافارا ، حتى عبر الحدود الفرنسية في ربيع سنة ٧٣٢ م فاجتاز وادي بيكورال و برن . ويصف الكتاب العرب مدينة « ارنس » بأنها واقعة في سهل موحش على نهر يبعد ثلاثة فراسخ من البحر ، وكان القائد العربي قد صالح سكانها على دفع الجزية ، ولكنهم لما سمعوا بقتل « مانوزه » رفضوا تنفيذ ما تعهدوا به ، فسار إليهم عبد الرحمن على رأس جيش كبير ، ودارت بين الفريقين معركة شديدة على شواطئ الرون انتهت بسقوط المدينة في أيدي العرب ، ثم واصل عبد الرحمن زحفه حتى غشى « بوردو » فاستولى عليها بعد مناوشات طفيفة ، وسارع إلى مقابلة « الدوك أوف اكويتين » الذي حاول عرقلة زحفه على « دوردون » فوقعت بين الطرفين معركة هائلة ، دارت فيها الدائرة على الدوك وهزم شرمزيمة . ويقول إيزودور من أهالي بيجان : « لا يعلم إلا الله وحده عدد من قتل من المسيحيين في تلك

المركة . وبهذا النصر قضى عبد الرحمن على كل مقاومة في ولاية اكواتين وسحق بورغاندى ، وأخذت راية الإسلام تحقق على أسوار ليون ، وبيزانصون وصانص ، ثم أقيمت حاميات قوية في المدن التي احتلها القائد العربي مما أدى بطبيعة الحال إلى إنقاص عدد جيشه ، ومن هناك سار نحو عاصمة بلاد الفرنجة واشتبك على شواطئ دوردون مع جيش أودوس في معركة شديدة دارت فيها الدائرة على الأعداء الذين استنجدوا « بشارلس أو كالدوس » الابن الطبيعي « لبيان هارستال » وكان هذا بحكم منصبه (أمين بلاط مورفيكان) يتمتع بنفوذ واسع على الفرنجة ، وفي الحال رأى في طلب أويوديس وسيلة من وسائل التوسع فاستجاب لطلبه بنشاط وفرح شديدين ، وحشد قوة كبيرة من متوحشى قبائل حدود الدانوب ، والألب ، وقفار المانيا ، وسار على رأسهم نحو الجنوب . وفي تلك الأثناء كان العرب قد غشوا مدينة طوروس ، وبعد معركة شديدة بينهم وبين أهلها استولوا عليها وأعلموا فيها النهب والسلب . ويعزو أحد كتاب العرب المصائب التي حاقت بالجيش العربي إلى غضب الإله من أعمال العنف والقسوة التي ارتكبتها البربر في طوروس برغم أوامر ضباطهم .

وفيا كان القائد العربي يحاول عبور نهر القوار اعتماداً على الأخبار الخاطئة التي أنت بها الجواسيس عن قوة الأعداء واستحكاماتهم فاجأه « شارلس » بمجموعه الجرارة ، فأسقط في يده حينما رأى أن جيوش العدو تفوقه عدداً ، وفي الحال أمر بسحب نقاطه الأمامية ، وارتد من شواطئ النهر إلى النقطة الواقعة بين تور وبواتيه . ويمكن أن يقال إن حال جيشه كانت تدعو إلى القلق وعدم الاطمئنان ، إذ كانت الفرق المؤلفة من القبائل مثقلة بالأسلاب والغنائم ، ولما كانت قلوبهم تميل بالحسد والبغضاء فقد رفضوا أوامره وأبوا القيام بأى عمل يستدعى اتحادهم حيناً من الزمن ، كما أخذوا يلحون بالانسحاب متمسكين بالأسلاب التي جمعوها في سيرهم نحو الشمال تمسك الفريق بوسائل النجاة ، مما

أدى إلى انحلال صفوفهم وإضعاف روح النظام فيهم . نخشى عبد الرحمن بطبيعة الحال — كما تكهن « شارلس » — أنهم في وقت المعركة لن ينزلوا عن أسلابهم بالرغم من أنها تشل حركتهم ، ولهذا فكر في إقناعهم بالحسنى أن يتخلوا عن جزء منها ، ولكنه مع ذلك لم يصر على مطالبتهم بتنفيذ أوامره حرفياً خشية أن تسرى فيهم روح التمرد والعصيان . وقد نجم عن ضعفه (إذا صح أن يسمى هذا ضعفاً) أخطر النتائج . أما جيش « شاراس » فكان مؤلفاً من الفرسان والرجالة ، وكانوا جميعاً يلبسون جلود الذئاب ، وقد أرسلوا شعورهم المتجمدة على أكتافهم ، فعب بهم نهر « اللوار » على قيد بضعة أميال من معسكر العرب . واشتبك الفريقان ^(١) في مناوشات طفيفة مدى ثمانية أيام رجحت فيها كفة العرب ، وفي اليوم التاسع دارت معركة شديدة طوال النهار حتى حال المساء بين الفريقين ، ولكنهما اشتبكا في صباح اليوم التالي في معركة أشد هولاً من ذى قبل ، فضعف المسلمون الكفاح وكادوا يفوزون بالنصر الحاسم ، لولا أن دوت عندئذ صرخة في صفوفهم تؤذن بإحداق العدو بمعسكر المسلمين وسلب الغنائم ، فهلعت قلوبهم وأسرعوا في الحال إلى الخيام يذودون عن الأسلاب والغنائم بالهجم والسواعد ، وعبثاً حاول عبد الرحمن أن يهدئ خواطرم ويعيد النظام إلى صفوفهم . وبينما كان يحضهم على الثبات أصابه سهم طائش في صدره خر على أثره صريعاً ، فأثر مقتله أسوأ تأثير على جميع الصفوف ، فاختل نظامهم ، واختلط الحابل بالنابل ، واتهمز العدو تلك السانحة وحمل عليهم حملة منكرة ، غير أن المسلمين سرعان ما لماوا شعهم وانقضوا ثانية على العدو يوقعون به شر إيقاع ، حتى نشر الليل أجنحته فعاد كل فريق إلى موقعه .

(١) من الصعب تحديد الموقع الحقيقى الذى وقع فيه القتال ولكن ليس ثمة شك في أن ميدان تلك المعركة يقع في الأرض الواقعة بين البوكتيارس وطوروس وبيرويه عدة نهيرات تنبع من نهر اللوار .

الحصام بين
القواد المسلمين

ولم يكد جنود المسلمين يعودون إلى تخيمهم حتى دب نزاع هائل بين قادة عبد الرحمن، وشهر كل منهم سلاحه في وجه الآخر. وعندئذ بدا فوز المسلمين بعيد المنال، ولم يعد ثمة سبيل أمامهم إلا التقهقر، وتحت جنح الليل البهيم سحب القواد جنودهم بهدوء ميممين شطر «سبمانية». وفي الفداة أحس الأعداء هدوءاً مخمياً على مصكر المسلمين، فظنوا أن في الأمر خدعة وراحوا يتقدمون بهيب وحذر عظيمين. ولشد ما دهشوا عند ما رأوا أن مصكر العرب قد هجر أصحابه ولم يبق فيه إلا بعض الجرحى الذين قعد بهم الحظ المأثر عن اصطحاب القوة المتقهقرة، وفي الحال انقضوا على هؤلاء الساكنين وذبحوهم ذبح الأنعام. بيد أن شارلس مع ذلك لم يجرؤ على اللحاق بالمسلمين، فداد أدرجه إلى الشمال^(١). ويمكن القول بأن العرب في سهول تور وبواتيه، قعدوا سيادة العالم بعد أن كانت في متناول أيديهم، وهكذا أدى عدم الطاعة والعصية القبلية، اللتان تعتبران نقمة على الجماعات الإسلامية، إلى تلك النتيجة المحزنة. وقد أطلق على ميدان تلك المعركة الرائعة في التاريخ العربي «بلاط الشهداء» لكثرة من قتل فيها من مشاهير المسلمين مع قائدهم عبد الرحمن. ولا يزال الأتقياء يعتقدون أن ملائكة السماء في ذلك المكان تدعو المؤمنين كل غروب إلى الصلاة. ويدعى المؤرخون الرهبان أن العرب خسروا في تلك المعركة نحواً من ٣٦٠ ألف مقاتل، أي ما يزيد عن أربعة أضعاف عدد الجنود الذين زحف على رأسهم عبد الرحمن إلى فرنسا! وهذه المبالغة تكشف عن ذاتها إذا ما علمنا أنه لم تكد تمضي بضعة أشهر حتى جمع قائد الأندلس — برغم الفتن والاضطرابات — جيشاً لجباً؛ وإن كان دون جيش عبد الرحمن في الأجهزة والنظام. وقيل إنه

(١) لا شك أن تلك الموقعة كانت حاسمة من وجهة واحدة، وهي أن عبد الرحمن كان الرجل الوحيد الذي يستطيع توحيد مضر وحير، ولهذا بعد موقعة خسارة لا تموز إذ لم يستطع أحد بعده أن يؤثر فيهم ذات التأثير أو يتمتع بنفس النفوذ الذي كان يتمتع به على العرب.

بلغ من شدة سحق العرب لموت قائدهم العظيم أن أحرقوا دير « سواليان » في « ليوموزين » أثناء انسحابهم إلى الجنوب .

وفي الحال أرسل نائب « عبد الرحمن » أخبار تلك الكارثة إلى أمير أفريقيا وإلى الخليفة « هشام » في دمشق ؛ فبعث الخليفة على جناح السرعة عاملاً جديداً اسمه « عبد الملك بن قطن الفهري » وأوصاه بأن يوجه نشاطه إلى استعادة هبة المسلمين في تلك البلاد . وكان أهل المناطق الجبلية في شمال شبه الجزيرة قد اتهموا فرصة مقتل عبد الرحمن وشقوا عصا الطاعة ، فزحف عليهم « عبد الملك » حتى وصل إلى « أراغون » و « نافاره » واشتبك بهم في عدة معارك هزمهم فيها وأجبرهم على التسليم ، كما استولى بعد ذلك على « لانكيدوك » وعزز الحاميات العربية في تلك المنطقة .

تولية عبد الملك
على الأندلس

وفي عام ٧٣٤ م عقد « يوسف » نائب مقاطعة أربونة الخناصر مع « مورتنيوس » أمير مرسليليا ، الذي كان محالفاً للمسلمين ، وزحف الجيشان على الرون وأوقعا بجيش الإفرنج شر إيقاع ، فسلبت سان ريمي (التي كانت تسمى عندئذ فريتا) ، ثم زحفا على أفنون واستوليا عليها بعد حصار لم يستغرق إلا مدة قصيرة ، ومن هناك عاد عبد الملك إلى الجنوب . ولكن الخليفة لم يلبث أن عزله في رمضان سنة ١١٦ هـ ، بسبب الهزيمة التي منى بها جيشه في شعب جبال البرنيه ؛ وإن كان المؤرخون العرب ينسبون عزله إلى قسوته وصرامته في تنفيذ الأحكام . وولى بعده « عقبة بن الحجاج السلوي » وكان رجلاً عادلاً فاضلاً محبوباً من جميع المسلمين ؛ وفي خلال الخمس سنوات التي تولى فيها الحكم غزا فرنسا عدة مرات ، وسار بجيشه إلى مواقع أبعد مما وصل إليها المسلمون من قبل . وتمكن العرب في عهده من إقامة الحاميات في المحلات المكشوفة ، وغشوا كذلك حدود نهر الرون وسميت تلك المواقع « بالرباط » التي كان الغرض من تأسيسها إقامة نقاط دفاعية استكشافية ؛ كما أنهم شيدوا في أربونة قلعة هائلة

اختزنوا فيها الأسلحة والعتاد . وفي سنة ١١٨ هـ (٧٣٦ ميلادية) وصلوا إلى دوفيه ، واستولوا بالتتابع على سان بول ، وترواشاتو ، ودونزير وفالانس ، ونيوليونز ، ثم ساروا إلى بورغاندى حتى أصبحوا على قاب قوسين أو أدنى من عاصمة فرنسا . كذلك كانوا قد استولوا قبل سنة على مدينة بيدومون ، ثم راحوا يؤسسون المعاقل العسكرية في النقاط المهمة . ولما تأكد « شارلس مارتيل » في موقعة تور أنه لا يقوى على مقاومة المسلمين وحيداً ، استنجد بملك اللومباردين المسمى « بليوتيراند » ، وفي تلك الأثناء كان « تشيريراند » أخو « شارلس » قد زحف بمجنوده البرابرة من الجهة الشرقية على المستعمرات العربية ؛ بينما أخذ شارلس يحرض البشكنس والفسقونيين على غلق ممرات البيرانس ومناوشة العرب الذين أصبحوا محاطين بالأعداء من كل جانب . فاستولى الفرنج على مدينة إيفينون بعد حصار طويل ووثبوا بالمسلمين القاطنين فيها ومزقوا شرمزق ثم زحفوا على ناربون وحاصروها . وهكذا تخرج موقف العرب وأخذوا يطلبون الأمداد من البحر ، ولكن الحلفاء وقفوا لهم بالمرصاد وحالوا دون أية مساعدة تأتيهم من الخارج ، بيد أن العرب المحصورين بالرغم من كل هذه السكواث دافعوا دفاعاً مجيداً عن المدينة . ولما ينس شارلس من سقوطها رفع عنها الحصار ووجه اهتمامه إلى عرقلة سير النجيدات التي أرسلت لمساعدة سكان المدينة المحصورين ، وحول في سبيل هذه الغاية بقعة كبيرة من الأرض العامرة في جنوبي اللوار إلى بلقع قفر ، وهدم مدينتي « بيزيه » و « ادج » وعدة مدن أخرى هامة كان العرب قد جلوها ، وذهبت مدينة ناني بمسرحها الفخم وتماثيلها العظيمة طعمة سائقة للنيران . ويعتبر حتى مؤرخو فرنسا هذه الأفعال الجنوبية عملاً مشيناً جديراً بالثناء . وقد خربوا كذلك مدينة « ماكيكون » بعد أن كانت قد وصلت إلى درجة عظيمة من الازدهار لم تعرفها في عهد القوطيين أو الفرنج . وبينما كانت هذه الحوادث تقع في فرنسا كانت أفريقيا تعصف بها ريح

الفتن التي لم تلبث أن سرت عدواها إلى بلاد الأندلس ، فثار « عبد الملك بن قطن » عامل الأندلس المعزول مع جماعة كبيرة في سنة ١٢٣ هـ ، وبعد أن فتك بعامل الأندلس الجديد استولى على زمام الحكم ، ولكنه لم يلبث طويلا في منصبه حتى وصل « بلج »^(١) إلى الأندلس على رأس الثائرين من أهل الشام وكانوا قد فروا من موقعة جيش كلثوم^(٢) في أفريقيا فأضافوا بوصولهم إلى الأندلس عنصراً جديداً من عناصر الشغب والفتن . وما عثم الزعيمان الثائران أن اشتبكا في معركة دموية هائلة أسفرت عن قتل « عبد الملك » . وعندئذ أمر « بلج » بصلبه ولكن « بلج » نفسه لم يلبث طويلا أن لحق به متأثراً من الجروح التي أصابته في المعركة .

وعلى أثر وفاة بلج ولى جنود الشام « ثعلبة بن سلامة » أحد زملائهم الأكفاء على الأندلس ، وبدأت الفتن الداخلية تستعر بشدة ، فقال المولدون « مسلو الأسبان » إلى أولاد عبد الملك ، كما تحزب جنود الشام إلى رئيسهم الذي انحاز إليه البربر أيضاً . وهكذا توقف دولاب الإدارة في تلك البلاد ، وهجر العرب مرا كزهم العسكرية في فرنسا ، وسارع أمير حامية نوربون مع خيرة جنوده إلى نجدة عبد الملك وأولاده ، وفقدت البلاد الأخرى التي كانت في أيدي العرب أحسن جنودها . ولو أن « بايين القصير » الذي خلف والده تشارلس هجم على تلك المراكز وقتئذ لأخذها دون أية مقاومة ، ولكن الدروس التي كان بايين قد تلقاها في المعارك السابقة لم تكن قد محيت بعد من ذاكرته أثر الهزائم التي تكبدها ، ولهذا عقد النية على أن يترث حتى تتضع قوى العرب في الفتن الداخلية فينقض عليهم بجنوده .

وبينما كان المسلمون في آسيا يتطاحنون فيما بينهم ، كانت الأمور في دمشق

(١) بلج بن بشر القشيري .

(٢) كلثوم بن عياض .

بالرغم مما أحرزه جيش الخليفة من نجاح في آسيا الصغرى ، تسير من سبي إلى أسوأ ؛ فقد كان على العراق عامل اسمه « خالد » ظل يحكم البلاد بالعدل والإنصاف منذ تولية « هشام » ، ولكن تسامحه أثار عليه حفيظة كثير من الأعداء الذين راحوا يتألبون عليه ، ويسمون أفكار هشام نحوه ، ويتمونه بالمطف على الهاشميين . وقد كان هشام نفسه بخيلاً مقترراً ، ولعل هذا البخل وحده هو الذى حدا به إلى تصديق تلك الوشائات ، وإلى اتهامه بابتزاز ثروة طائفة من الناس ، ولم تكد تمضى سنة ١٢٠ هـ حتى عزله وعين بدلاً منه مضرباً اسمه « يوسف بن عمر الثقفى » الملقب بالمنافق ، وكان رجلاً قاسى القلب متقلب الأهواء ، فراح ينزل بخالد أشد أنواع العذاب لكي يحمله على الاعتراف بالأموال التى ابتزها ، ولكن الخليفة لم يعم أن فك سراحه وحده دون بقية المسجونين من بنى هاشم .

كذلك حدث فى تلك الأثناء أن طلب « زيد » خفيد الحسين من هشام بعض المساعدة ، ولما أعرض عنه هشام وأهمل شأنه خرج من لدنه ساخطاً ، وسافر فى الحال إلى الكوفة موطناً النفس على القيام فى وجه الخليفة بالرغم من نصائح أهله ألا يركن إلى أهل العراق ، ولكنه أصر على شق عصا الطاعة ، فلم يلبث أن منى بالهزيمة وقتل فى الميدان . والمعروف أن أصحابه كانوا قد حرصوا على دفنه خلسة ، بيد أن الخليفة الأموى أمر عامله بأن ينبش قبره ويحرق جسمه ثم يذريه فى الرياح على الفرات ، وهو عمل وحشى أقل ما يقال فيه أنه مجرد من العاطفة الإنسانية ، كما أثار على الأمويين نقمة كثير من التبرمين والساخطين ، وفى الحال فر « يحيى بن زيد » إلى خراسان ، وقد كان شاباً على الهمة فى السابعة عشرة من عمره .

ومما يلاحظ أن الدعوة العباسية نالت بموت « زيد » أكبر تعضيد ، إذ زال من طريقها منافس قوى وخصم عنيد ، كما تصادف وقوع هذا الحادث مع

ثورة زيد
خفيد الحسين

ظهور « أبي مسلم الخراساني » الذي يعتبر في الواقع سبب سقوط الدولة الأموية .
وفي عام ١٢٤ هـ توفي محمد حفيد العباس صاحب فكرة إقصاء بني أمية عن
الخلافة وإحلال أحفاد الرسول محلمهم ، تاركا لابنه الأكبر « إبراهيم » مهمة
تحقيق تلك الأمنية .

أبو مسلم
الخراساني

ولد أبو مسلم الخراساني^(١) في أصفهان وهو يمني الأصل من عائلة عربية ،
وكان قد اتصل في بادئ أمره بمحمد بن علي بن العباس ، الذي أعجب بذكائه
وقدرته على تنظيم الجمعيات السرية ، فأوفده إلى خراسان ليرأس الحركة العباسية
هنالك ، فاستطاع بما أوتي من حسن البيان وقوة الجنان أن يجذب إلى الدعوة
الهاشمية عدداً كبيراً من الناس ، وقد قوى أمره وظهر سلطانه على أثر وفاة
هشام الذي قبض في الرصافة في قنسرين في ربيع الثاني عام ١٢٥ هـ ، وبويع
بالخلافة بعده ابن أخيه « الوليد الثاني »^(٢) .

وفي عام ١١٣ هـ توفي الإمام « محمد الباقر » وخلفه ابنه جعفر الصادق .

(١) يقول السعدي : « إنه تنوزع في أمر أبي مسلم ، فمن الناس من رأى أنه كان
من العرب ومنهم من رأى أنه كان عبداً فأعتق » . (المعرب)

(٢) زارت حفيدة وتيشا السباء « الأميرة سارة » بلاط الخليفة هشام تستنجدته وتطلب
إليه الفصل بينها وبين عمها الذي اغتصب أملاكها وأملاك أخيها ، فقابلها هشام بمقابلة حسنة ،
وأسكنها في قصر زوجه ولم يكتف بإعادة أملاكها إليها بل زوجها أيضاً من نبيل من النبلاء
العرب عادت معه إلى أسبانيا ، وظلت متمسكة بديانتها ، غير أن أبناءها ربوا على الديانة
الإسلامية ، وتمتع أحفادها بمركز ممتاز في تلك البلاد ، وكان يلقب أحدهم بابن القوطية ، وكان
حائلاً فاضلاً .